مجلة دراسات إسلامية رقم ISSN 1112-8011
المجلد : 19 العدد : 01 السنة : 2024 ص 67 – 84

ملامح فقه العلم في تراث الحديث النبوي

– قراءة أبستمولوجية في كتابات وممارسات الحافظ الخطيب البغدادي (463هـ) –

Features of Fiqh al-ʿIlm in Hadith Literature: An Epistemological Examination of the Writings and Practices of al-Ḥāfiẓ al-Khaṭīb al-Baghdādī (463AH)

خيرئيل حسيني بن جميل *

كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا
husaini@iium.edu.my

تاريخ الارسال : 2024/03/17	تاريخ القبول : 2024/04/30	تاريخ النشر : 2024/06/23

ملخص:

يكشف هذا البحث عن ملامح الاهتمام بنظرية المعرفة أو فقه العلم كما تضمنته مصنفات الحافظ الخطيب البغدادي (463هـ) وما نُقل عنه من الآراء والمواقف والأعمال. يجد المتصفح لدواوين الخطيب المتنوعة والمؤصلة لكثير من المسائل والمباحث الحديثية أنه قد أشار أيضًا إلى كثير من القضايا المعرفية منها تعريف العلم، ومقاصد العلم ومرتبته، وتقسيم العلم إلى ضروري ومكتسب، ومسائل تتعلق بمفاهيم الظاهر والغلبة والظنية، كما اهتم بتحقيق الأصولية في الحقل العلمي وربط المعرفة بوسائلها كالحفظ والتقييد والعمل. ويقترح الباحث ثلاثة أبعاد مهمة تحيط بالمنهج العلمي للخطيب البغدادي وهي: بعد الرواية النقلية، وبعد الدراية العقلية، وبعد الرعاية القلبية. ويسلك الباحث في هذه الدراسة كلا المنهجين الاستقرائي والاستنباطي للوصول إلى التصور الأبستمولوجي لمنهج الخطيب وذلك من خلال استخلاص ملامح ذلك التصور من مصنفاته واستنباط بعض الإشارات من نصوصه. ويرجو الباحث أن يسهم هذا العمل في تحقيق التواصل بين العلوم وتحقيق الرؤية التجديدية في مسار البحث العلمي.

* المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحية: الخطيب البغدادي؛ أبستمولوجيا الحديث؛ فقه العلم؛ تراث الحديث؛ قضايا معرفية.

Abstract:

This study delves into the epistemological aspects of hadith literature through the works of al-Ḥāfiẓ al-Khaṭīb al-Baghdādī, exploring his discussions on the theory of knowledge. al-Khaṭīb addressed various issues such as the definition and purpose of knowledge, its hierarchy, and classical epistemic categories. The research identifies three methodological dimensions in al-Khaṭīb's framework: transmission, meaning, and spiritual aspects. Notably, his inclusion of the mutawātir-āḥād division into hadith studies is highlighted as a significant contribution, impacting subsequent scholars like Ibn al-Ṣalāḥ. Employing both inductive and deductive methods, this research aims to bridge religious sciences with modern discourse, fostering a renewed approach to intellectual inquiries.

Keywords: **al-Khaṭīb al-Baghdādī; Epistemology of Hadith; Islamic Epistemology; Hadith Literature; Issues on Knowledge**.

مقدمة:

يكشف هذا البحث عن ملامح الاهتمام بنظرية المعرفة أو فقه العلم كما تضمنته مصنفات الحافظ الخطيب البغدادي (463هـ)، محدث مدينة السلام ومؤرخها، وما نُقل عنه من الآراء والمواقف والأعمال. يجد المتصفح لدواوين الخطيب المتنوعة والمؤصلة لكثير من المسائل والمباحث الحديثية أنه قد أشار أيضًا إلى كثير من القضايا المعرفية منها تعريف العلم، ومقاصد العلم ومرتبته، وتقسيم العلم إلى ضروري ومكتسب، ومسائل تتعلق بمفاهيم الظاهر والغلبة والظنية، كما اهتم بتحقيق الأصولية في الحقل العلمي وربط المعرفة بوسائلها كالحفظ والتقييد والعمل. يتناول هذا البحث بعض تلك الملامح معالجاً قضاياها في المباحث الآتية: (1) ترجمة موجزة عن الحافظ الخطيب البغدادي، (2) ذكر بعض مؤلفات الخطيب البغدادي وتصنيفها بما يفيد التصور الأبستيمي، (3) غاية العلم وحقيقته ومنزلته عند الخطيب البغدادي، (4) الإطار المنهجي عند الخطيب البغدادي في المسائل الشرعية، و(5) ملامح فقه العلم الإسلامي في جوانب أخرى. يعتمد البحث في تحقيق أهدافه على استقراء مصنفات الخطيب البغدادي وجمع المعلومات التي ترتبط بحياته وعلمه. وفي الختام، يستعرض البحث أهم النتائج والتوصيات، متطلعًا إلى أن يسهم هذا العمل في تعزيز التواصل بين العلوم وتطوير الرؤية التجديدية في مسار البحث العلمي.

1. ترجمة موجزة عن الحافظ الخطيب البغدادي

هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، أبو بكر الخطيب البغدادي الثابتي، والخطيب صفة له

لا لقب لكنه اشتهر به كما نص عليه ابن حجر العسقلاني (852هـ).[1] وكان أول ورود لترجمته في معجم الشيوخ لتلميذه عبد العزيز النخشبي (467هـ). ثم تحدث عنه أيضا تلاميذه الآخرون أمثال عبد العزيز الكتاني (466هـ)،[2] والأمير ابن ماكولا (475هـ)،[3] وأبو الفضل بن خيرون (488هـ)،[4] وغيث بن علي الأرمنازي (509هـ)،[5] وأبو الحسن الهمذاني (521هـ)،[6] وهبة الله ابن الأكفاني (524هـ)،[7] وغيرهم. وهذا هو الجيل الأول الذي استفدنا منهم ترجمة الخطيب مع أن أكثر كتبهم مفقودة وأقوالهم منقولة من المصادر الثانوية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ترجمة الخطيب معرضة للتنازع والتدليس كما بينتها فيدوا ملتي–دوغلاس في دراستها. ونود أيضا أن نشير إلى أن ديباجة تحقيق كتاب تاريخ مدينة السلام التي كتبها الدكتور بشار عواد تعتبر أوسع دراسة لترجمة الخطيب.[8] ولكثرة المصادر التي تناولت حياة الخطيب، سنكتفي بإيراد بعض المقتطفات التي يندر ذكرها ولم يشر إليها كثير من المترجمين.

ولد رحمه الله سنة 392 هـ كما نص عليها بنفسه في أسرة كانت تعتني بالعلم. فأبوه كان يحضر مجالس أبي حفص الكتاني (390هـ) في مسجده بقرب نهر دجاج، وهي مجالس علم الحديث والقراءات، والكتاني أحد تلاميذ أبي بكر ابن مجاهد (324هـ).[9] ونشأ الخطيب في بيئة علم وصلاح إلى أن صار عالماً في بغداد ووصفه ابن الأثير بكونه إمام الدنيا في زمانه.[10] ونذكر في هذا الصدد الموجز الشبكات العلمية الرئيسة التي اشترك فيها الخطيب خلال الأطوار التي مرت في حياته. وهذه الشبكات يمكن تصنيفها إلى ثلاثة:

أ– شبكة علماء الشافعية لا سيما المعتنين منهم بمختصر المزني وفروعه من الذين وضعوا التعليقات والتخريجات عليه. فالخطيب قد نشأ وترعرع عند علماء الشافعية منذ نعومة أظفاره. فكان مؤدبه هلال بن عبد الله الطيبي (422هـ) الذي كان يدرس أصول أبي بكر الصيرفي الشافعي (330هـ)، تلميذ أبي العباس بن سريج (306هـ).[11] وممن درَّسه في صغره أيضا أبو بكر الأخرم المعروف بابن الصيدلاني (417هـ) الذي كان يُدرّس في مسجد الشافعية، مسجد أبي الحسن الدارقطني.[12] ثم يتناقل في دروس الشافعية نحو دروس أبي الحسن المحاملي الشافعي (415هـ)، وأبي حامد الإسفراييني الشافعي (406هـ)، وأبي الحسن الماوردي الشافعي (449هـ)، وسليم بن أيوب أبي الفتح الرازي الشافعي (447هـ). وكان هو نفسه يكتب التعليقات على مختصر المزني عند القاضي أبي الطيب الطبري (450هـ)، شيخه الرئيس في المذهب الشافعي. ومع صحبته لأئمة المذاهب الأخرى أمثال القاضي أبي يعلى ابن الفراء الحنبلي (458هـ)، وأبي الحسين القدوري الحنفي (428هـ)، وأبي عبد الله الدامغاني الحنفي (478هـ)، والقاضي أبي عبد الله الصيمري الحنفي (436هـ)، وأبي الفضل ابن عمروس البزاز المالكي الأشعري (452هـ)، كانت علاقته مع الشافعية وكبارهم أغلب وأظهر.

ب– شبكة حملة الآثار ونقلة الأخبار الذين اهتموا بنقل أحاديث الرسول والمرويات الواردة عن السلف. فكانت رحلات الخطيب تشهد له بهذه العلاقات واهتمامه بالانتفاع منهم. فكتابه تاريخ مدينة السلام ينبئ عن أخذه الأحاديث في شتى أنحاء بغداد كسماعه الحديث في باب الشام وباب الشعير وسوق الطعام،

وذهابه إلى عكبرا وبصرة لسماع الحديث.[13] فكان يهتم بالأسانيد العالية حتى نوى الذهاب إلى مصر للأخذ من أبي مُحَمَّد ابن النحاس (416هـ). ولكن لم يتحقق ذلك لكونه اختار دار السنة والعوالي نيسابور[14] فرحل هناك حيث تلاميذ أبي العباس الأصم (346هـ) لا سيما الحافظ أبو حازم العبدوي (417هـ).[15] وكانت هي الرحلة التي فتحت له فرص السماع في نهروان، ودسكرة الملك، وحلوان، وديناور، وأسدأباد، وهمذان، وساوة، والري. وله رحلة بعد هذه إلى أصفهان للتعلم على أيدي أبي نعيم الأصفهاني (430هـ).[16] ثم هناك رحلة ثالثة إلى مكة والقدس ومدن الشام نحو الصور. ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الشبكة اهتمت بالأسانيد العالية واستفاد الخطيب منها استفادة عظيمة غلبت على حياته.

ج- شبكة التحقيق والتدقيق في الأسانيد والمؤيدين لفكرة الصحيحين. ونقصد بهذه الشبكة هؤلاء الأعلام الذين أدرجهم الباحث جوناتن بروان في شبكة الصحيحين التي تؤيد اعتبار الصحيحين أصح الدواوين الحديثية.[17] فكان الأثر الكبير لدى الخطيب من قبل أبي بكر البرقاني (425هـ)، تلميذ أبي الحسن الدارقطني. فللبرقاني كتاب بعنوان المستخرج الصحيح، أي على الصحيحين.[18] وكذلك أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي الصوري (441هـ) الذي كان تلميذاً لعبد الغني بن سعيد الأزدي (409هـ) صاحب التصانيف المبدعة في علم الرواة. وتعلم الخطيب علوم الأزدي من طريق الصوري حتى أعلن أبو الحسين الطيوري (500هـ)، أحد تلاميذ الصوري بأن أكثر كتب الخطيب مستفادة من كتب الصوري.[19] على كل حال، فالخطيب كان يهتم بالتصحيح والتضعيف وجعل أحاديث الصحيحين في قمة الأحاديث الصحيحة.

هذه الشبكات الثلاثة تفسر لنا اهتمام الخطيب بالحديث والفقه وانتهاجه في اعتماد مذهب الشافعي منهج أصحاب الحديث. وكان أيضا يجلس عند بعض علماء الأصول والكلام نحو أبي الحسين البصري المعتزلي (436هـ)، وأبي علي بن شاذان الأشعري (426هـ)، وأبي القاسم علي بن المحسن التنوخي المعتزلي (447هـ)، وينقل آراء أبي بكر الباقلاني الأصولية عن طريق ابن عمروس السابق، مما يساعدنا في تفسير اهتمامه بالأصول والتأصيل. حضر الخطيب أيضا عند أئمة الصوفية في زمانه نحو أبي سعد الماليني الهروي (412هـ) الملقب بطاووس الفقراء والذي عقد جلساته في رباط الصوفية بجامع المنصور ببغداد.[20] فلا عجب إذاً أن يوصي الخطيب بكتبه وماله بعد وفاته إلى ثلاث فئات من الناس: أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية الفقراء. وكانت وفاته سنة 463 هـ ودفن بقرب بشر الحافي كما أوصى بذلك وتولى ذلك الأمر أبو سعد أحمد بن مُحَمَّد بن دوست الصوفي، صاحب رباط شيخ الشيوخ.[21]

2. ذكر بعض مؤلفات الخطيب البغدادي وتصنيفها بما يفيد التصور الأبستيمي.

وللخطيب مؤلفات كثيرة تربو عن ثمانين كتاباً نذكر بعضها على حسب التصنيفات الآتية. ففيما يتعلق بأصول العلم والمعرفة من حيث منزلته وأنواعه وأدبياته له (بيان أهل الدرجات العلى)، و(شرف أصحاب الحديث)، و(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)، و(الدلائل والشواهد على صحة العمل بخبر الواحد)،

و(حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم)، و(طرق حديث قبض العلم)، و(حديث نضر الله امرءًا سمع منا حديثاً). هذه الكتب تبين لنا مقامات أهل العلم وشرف العلم وأنواعه. وفي الكلام عن أصول العلم من حيث وسائله له كتاب (تقييد العلم)، و(الرحلة في طلب العلم)، و(إجازة المجهول والمعدوم وتعليقهما بشرط)، و(إرواء الظمي في تبكير سماع الحديث للصبي)، و(كتاب الفقيه والمتفقه)، و(نصيحة أهل الحديث)، و(اقتضاء العلم العمل). وفي إثراء اللغة وأساليب بيان العلم له مساهمات من خلال (جزء فيه خطبة عائشة في ذكر أبيها وعمر بن الخطاب)، وكتاب (البخلاء)، و(التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم).

ثم في مباحث تعيين الراوي الذي أصبح هو فارس ميدانه له (الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة)، و(المكمل في بيان المهمل)، و(الأسماء المتواطئة والأنساب المتكافئة)، و(من وافقت كنيته اسم أبيه مما لا يؤمن وقوع الخطأ فيه)، و(غنية الملتمس إيضاح الملتبس)، و(المؤتنف تكملة المؤتلف والمختلف)، و(المتفق والمفترق)، و(تلخيص المتشابه في الرسم)، و(تالي تلخيص المتشابه)، وكتاب (الموضح لأوهام الجمع والتفريق). فأما ما يتعلق بتاريخ الأئمة الرواة وأحوالهم من حيث الجرح والتعديل فله (تاريخ مدينة السلام)، و(مناقب أحمد بن حنبل)، و(مناقب الشافعي)، و(أخبار من حدث ونسي)، و(التعليق على سؤالات البرقاني في الجرح والتعديل). ثم المؤلفات التي تعتني بمباحث الترتيب والاتصال في الإسناد نحو (رواية الآباء عن الأبناء)، و(رواية الصحابة عن التابعين)، و(حديث الستة من التابعين وذكر طرقه)، و(السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاتي راويين عن شيخ واحد)، و(تمييز المزيد في متصل الأسانيد). وفي أبواب ما يتعلق بدراية الرواية له (التفصيل لمبهم المراسيل)، و(التبيين لأسماء المدلسين)، و(الفصل للوصل المدرج في النقل). وأما ما يتعلق بأصول نقد الرواية فله (بيان حكم المزيد في متصل الأسانيد)، وكتاب (الكفاية في معرفة أصول علم الرواية).

ثم إن الخطيب قد ألف أيضاً في مسائل فقهية معينة على منهج أصحاب الحديث وإن كان في أكثرها مال إلى المذهب الشافعي وتكفل بالرد على بعض الأقوال الفقهية المخالفة. فمن هذه الكتب (مسألة الوضوء من مس الذكر)، و(حديث إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة)، و(حديث الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن)، و(نهج الصواب في أن التسمية آية من فاتحة الكتاب)، و(الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم)، و(القنوت والآثار المروية فيه على اختلافها وترتيبها على المذهب الشافعي)، و(الغسل للجمعة)، و(صلاة التسبيح)، و(جزء فيه طرق حديث عبد الله بن عمر عن النبي في ترائي الهلال)، و(مسألة صيام يوم الشك في الرد على من رأى وجوبه)، و(إبطال النكاح بغير ولي)، و(القضاء باليمين مع الشاهد)، و(كتاب الحِيل). وحفظ عنه أيضا بعض الرسائل في مسائل عقدية مثل (حديث النزول)، و(مسألة في الصفات)، و(القول في علم النجوم هل الشروع فيه مشروع أو مذموم). ثم ذكرت عنه رسائل في الزهد نحو (أحاديث غريبة ومنامات)، وكتاب (الزهد والرقائق)، وكتاب (رقيق إنشادات في الزهد والرقائق) وكتابان نسبا إليه ولكن لم نستطع أن نتحقق منهما وهما (كشف الأسرار) و(رياض الأنس إلى حضائر القدس).

وتضاف إلى هذه الكتب مجموعات حديثية له نحو (أمالي الخطيب في مسجد دمشق)، و(الرباعيات)، و(المسلسلات)، و(جزء حديث أبي بكر الخطيب عن شيوخه)، و(مسند أبي بكر الصديق على شرط الشيخين)، و(مسند صفوان بن عسال)، و(جزء حديث نعيم بن همار الغطفاني)، و(مجموع حديث مطر بن طهمان الوراق) و(مجموع حديث مُحَمَّد بن جحادة) و(مجموع حديث بيان بن بشر) وغيرهم. وله أيضا انتخابات وانتقاءات كما في (عوالي أحاديث مالك بن أنس)، (تجزئة سنن أبي داود)، و(فوائد عبد الله بن علي بن عياض الصوري) و(فوائد أبي القاسم النسيب) وغيرها.

والخطيب ممن مدح الكتب والتأليف وله مكتبة عظيمة في بغداد، وعندما انتقل إلى دمشق حمل معه تقريباً 476 عنواناً ذكرها مُحَمَّد بن أحمد المالكي الأندلسي وحققنا أسماءها ومؤلفيها في رسالة مستقلة.[22] فكانت تحتوي على عشرة كتب في التفسير، وسبعة كتب في الناسخ والمنسوخ، وثلاثة كتب في غريب القرآن، وأربعة كتب عن اللغات في القرآن، وخمسة كتب في فضائل القرآن، وكتابين في الوجوه والنظائر. وهناك مؤلفات أخرى تتعلق بعلوم القرآن منها خمسة كتب في المصاحف، وثلاثة كتب في الوقف والابتداء، وثلاث عشرة كتاباً في القراءات. وتحتوي هذه المكتبة أيضا على كتب في الردود مثل الرد على الجهمية وذم الكلام وكتب في العقائد مثل كتابين في الإيمان وكتابين في دلائل النبوة. وكذلك تحتوي على كتب في الأحاديث من مصنفات في الأربعين والجوامع والأمالي وروايات الموطأ ونسخ الصحيح وكتب السنن. ومما يلحق بالحديث كتب أصول الحديث نحو مشكل الحديث والمدخل إلى الصحيح وغريب الحديث وعلل الحديث وكتب الأوهام. ولا شك أن التواريخ أيضا كانت من مراجع الخطيب. فكان يملك عدداً من التواريخ وعدداً من المعاجم والمشيخات وكتباً في الأنساب والمغازي والفضائل والمناقب. وله أيضا اعتناء بالزهد ومكارم الأخلاق وكلام الصوفية. وكان يحمل معه أيضاً ثلاثين مصنفاً لأبي بكر ابن أبي الدنيا، منها أجزاء بعناوين نادرة الإشارة. وفي المكتبة أيضا عناوين مختلفة تعالج موضوعات عدة نحو الخَيل والفصول والمواسم وخلق الإنسان والفلك والخواتيم والمواقيت وغيرها. وجمع الخطيب أيضا كتباً في العربية والآداب والخُطب وعنده عدد كثير من الدواوين الشعرية. وكذلك عنده كتب النوادر كالكتب عن البخلاء والثقلاء وكتب في المنامات. وهذه إضافة إلى الكتب الفقهية في آراء المذاهب وأصول المذهب وفتاوى ومسائل في المذهب.

وهذا العرض السريع لمؤلفات الخطيب والكتب التي امتلكها ينبئ عن سعة آفاق المعرفة عند هذا المحدث ويفسر بعض ملامح فقه العلم التي برزت في كتاباته وممارساته.

3. غاية العلم وحقيقته ومنزلته عند الخطيب البغدادي

اختلف الناس في غاية العلم اختلافاً كبيراً بين من يرى العلم وسيلة إلى معرفة الكليات المثالية ومن يرى بأنه وسيلة للتكسب ومن يرى بأنه ضامن للمكانة والاعتبار وما إلى ذلك. وإذا نظرنا في كتابات الخطيب، نجد أنه قد أشار إلى أن الغاية العظمى من العلم هي نيل رضا الله سبحانه وتعالى. فقد نَقل عن يوسف بن

الحسين الرازي أنه قال: "بالأدب تفهم العلم، وبالعلم يَصحّ لك العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة تفهم الزهد وتُوفق له، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا ترغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال رضى الله عز وجل."[23] فينال الإنسان هذا الرضا عن طريق العمل. فلذلك اهتم الخطيب بموضوع العمل حتى ألف كتابه (اقتضاء العلم العمل). وقال فيه لبيان العلاقة بين العلم والعمل: "العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قلَّ نصيبك منهما ... والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة إذا تفضل الله بالرحمة."[24] ويؤكد الخطيب أنه كلما اكتسب المرء المعرفة، أصبح إدراكه للحقيقة أكثر وضوحاً. وهو يشبِّه هذه العملية بشخص يقترب من قصر بعيد، ويكتسب تدريجيًا رؤية أفضل له مع اقترابه. مثلما يمكن لشخص ما على أرض مستوية أن يرى فقط ما هو قريب منه، ولكنه يكتسب منظورًا أوسع عند صعود الجبل، كذلك تكشف المعرفة عن رؤى وفهم جديد عندما يتعمق المرء فيها. تكشف كل خطوة في اكتساب المعرفة عن تعقيدات وروابط جديدة، مما يسمح للمرء بالاعتماد عليها كدليل في سياقات مختلفة إذا رزقه الله الفهم والتوفيق.[25] وكذا أشار إلى الحقائق الغيبية التي إذا عرفها الإنسان لسهل عليهم اتباع السنة لموافقتها العقول بلا لبس ولا إشكال. فبعض الأمور التي وردت في سنن الإسلام وشرائع الدين تظل محيرة للبعض وغير قابلة للتفسير بواسطة العقلية البشرية. قال: "ولو كُشف للناس عن أصولها لجاءت للناس واضحة بينة غير مشكلة." وشبّه الخطيب ذلك بالأحداث المذكورة في القرآن، كقصة السفينة والغلام والجدار، وأكد أن تعاليم النبي ﷺ مشابهة لتلك التي جاء بها النبي موسى عليه السلام، وتعتبر تكملة وتشابه بين بعضها.[26]

هذا وقد قدّم في بداية كتاب (الفقيه والمتفقه) أحاديث تفيد بأن الله يبعث كل عبد يوم القيامة على مرتبته التي مات عليها.[27] فالعلم ليس غاية في نفسه بل هو وسيلة إلى الفلاح إذا اقترن بالصلاح. فلذلك وجد من يسمى بعلماء السوء لكونهم حصلوا العلم ولكنهم لم ينتفعوا به. روى الخطيب بإسناده عن النبي عيسى عليه السلام أنه قال: "يا علماء السوء، جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم،" وأنه قال "إن للدين ثلاث علامات يعرف بهن: الإيمان والعلم والعمل."[28] فقد ربط الخطيب في عباراته هذه بين العلم والعمل والسعادة والمراتب الأخروية والدرجات العلى. ويدل على هذا الربط أيضا قوله: "وهل أدرك من السلف الماضين الدرجات العلى إلا بالإخلاص المعتقد، والعمل الصالح، والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا؟"[29] ويواصل الخطيب فيؤكد بأن تحقيق السعادة المطلقة من المرجح أن يتحقق من قبل أولئك الذين يثابرون على الكفاح، ويجدون الرضا في البساطة، ويعطون بسخاء للمحتاجين. وهو يتساءل عما إذا كان السعي وراء المعرفة يختلف عن السعي وراء الثروة، مما يعني أن كلاهما يمكن أن يؤدي إلى الجشع والهوس. ويشبه الخطيب حب المرء للمعرفة بالكنز الثمين، مشيرًا إلى أنه لا قيمة له إلا إذا تم استغلاله. وبالمثل، فهو يرى أن العلم مفيد فقط لأولئك الذين يتعاملون معه بنشاط. ولأجل هذا يرى الباحث حبيب مالك بأن الخطيب قد سبق الغزالي (505هـ) في إبراز هذه العلاقة بين الأدب المالح والعلم النافع الصحيح والعالِم

الخير والعمل الصالح والمنازل الأخروية والسعادة الحقيقية.[30]

هذه فيما يخص غاية العلم ومنزلته لا سيما العلوم الدينية. وأما ما يتعلق بتعريف العلم، فإن الواحد قد يتساءل عن كون الخطيب قد سمى الحديث النبوي وهو من أخبار الآحاد علماً مع أنه قد عقد فصلاً "في ذكر شبهة من زعم أن خبر الواحد يوجب العلم وإبطالها." وقد رد فيه على من قال بإفادة خبر الواحد العلم حتى من قال بأنه يفيد العلم الظاهر دون الباطن. فهو عنده رأي من لا يتقن علم هذا الأمر. قال: "العلم من حقه ألا يكون علماً على الحقيقة بظاهر أو باطن إلا بأن يكون معلومه على ما هو به ظاهراً وباطناً."[31] فنفي الخطيب كون خبر الواحد يفيد علماً يبين لنا المراد بالعلم عنده وهو معرفة المعلوم على ما هو به ظاهراً وباطناً. ويؤيده قوله: "خبر الواحد لا يقبل في شيء من أبواب الدين المأخوذ على المكلفين العلم بها، والقطع عليها." [32] وأوضح الخطيب أن السبب وراء ذلك يتمثل في أنه إذا لم نتأكد من أن الخبر قول للرسول ﷺ، فالقطع بمضمونه كان أبعد. واستمر الخطيب في توضيح أنه فيما يتعلق بالأحكام التي لم يتوجب علينا الثبوت بأن النبي ﷺ قد قالها وبلغها من الله، فإن قبول خبر واحد فيها يكون مقبولاً، ويجب العمل بها، وتكون تلك الأحكام ملزمة لجميع المكلفين بالعمل بها. قال: "وذلك نحو ما ورد في الحدود والكفارات وهلال رمضان وشوال وأحكام الطلاق والعتاق والحج والزكوات والمواريث والبياعات والطهارة والصلاة وتحريم المحظورات." [33] وأكد بأن خبر الواحد لا يقبل في منافاة حكم العقل وحكم القرآن الثابت المحكم، والسنة المعلومة، والفعل الجاري مجرى السنة، وكل دليل مقطوع به. قال: "وإنما يقبل به فيما لا يقطع به، مما يجوز ورود التعبد به كالأحكام التي تقدم ذكرنا لها، وما أشبهها مما لم نذكره."[34] وقد مال الخطيب في هذا الباب إلى رأي المتكلمين ولخص في الفصل المذكور أعلاه كلام الباقلاني كما تبين ذلك أيضا من مقارنة كلامه مع كتاب (التقريب والإرشاد) للباقلاني.[35] فلا عجب حينئذ أن قسم الخطيب العلم إلى علم ضروري وعلم مكتسب، وقسم الخبر عموماً إلى ما هو متواتر وضروري وما ليس بمتواتر فيكون من قبل الآحاد. ومن أمثلة المتواتر عنده حدوث الأجسام وإثبات الصانع.

ثم بالنسبة للأخبار المتعلقة بالسنة، فقسمها على منوال تقسيمه العلم. بَيَّن أولاً أن الإسناد أي ورود السنة إلينا على ضربين: تواتر وآحاد. قال: "فأما التواتر، فضربان: أحدهما تواتر من طريق اللفظ، والآخر تواتر من طريق المعنى."[36] ومَثَّل للتواتر عن طريق اللفظ بالحقائق التاريخية المتعلقة بالنبي ﷺ نحو خروج النبي من مكة إلى المدينة، وموته بالمدينة، وأنه دعا إلى الإسلام، وأن له أعداء، وأنه احتج بالقرآن وغيره. ثم مَثَّل للتواتر عن طريق المعنى بالأمور المشتركة المستنبطة من مجموعة من الأحاديث المختلفة المخارج والأحكام والمتغايرة في الأحداث والتفاصيل. فمن هذه الأمور المشتركة حصول المعجزة الحسية للنبي عموماً، وعمل الصحابة بخبر الواحد، والعمل بالإجماع. ويجب التنبيه إلى أن الخطيب لم يقسم الحديث إلى متواتر وآحاد كما فعل في السنة. بل ورد ما يشير إلى أنه جعل الأحاديث كلها آحاد كما فعل سابقته ابن حبان.[37] قال الخطيب في بيان أقسام الخبر من جهة إمكانية معرفة صدقه من عدمه: "والأخبار كلها على ثلاثة أضرب: فضرب منها تعلم صحته، وضرب منها يعلم فساده،

وضرب منها لا سبيل إلى العلم بكونه على واحد من الأمرين دون الآخر." [38] وفي الضرب الثالث الذي لا تعلم صحته من فساده، اعتبر الخطيب أنه من الضروري التحفظ عن اتخاذ قرار قاطع بصدق الخبر أو كذبه. قال: "وهذا الضرب لا يدخل إلا فيما يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون، مثل الأخبار التي ينقلها أصحاب الحديث عن رسول الله ﷺ في أحكام الشرع المختلف فيها." [39] وأوضح الخطيب أنه لا توجد وسيلة للتأكد مما إذا كانت هذه الأخبار صادقة أو كاذبة بشكل قاطع، وبالتالي، فإن اتخاذ قرار قاطع بشأن صدق الخبر أو كذبه لا يعتبر أولى من الآخر. ومع ذلك، يجب العمل بما تضمنت من الأحكام إذا استوفى الشروط.[40]

فإذا كان الحديث كله آحاد، والآحاد لا يفيد علماً، فلماذا سمى الخطيب الحديث علماً وطَلَبَه طلباً للعلم وكتابتَه تقييداً للعلم؟ يمكننا أن نستوحي الإجابة من كلام الخطيب في تسمية ما ليس بدليلٍ دليلاً. ذكر الخطيب بأن الفقهاء يسمون أخبار الآحاد والقياسَ وكل دليل أدى إلى غلبة الظن حجةً ودليلاً. والمحققون من المتكلمين وأهل النظر ينتقدونهم في هذا الأمر، ويقولون إن الحجة والدليل هما ما يحققان المعرفة للمحتج والمستدل ويكسبهم علماً بالمدلول عليه ويؤدي إلى يقين. فأما ما يؤدي في النهاية إلى غلبة الظن، فليس بدليلٍ في الحقيقة، وإنما هو أمارة. رأى الخطيب بأن كلا الفقهاء والمتكلمين لم يخطئوا في كلامهم. فقد اعتمد المتكلمون الحقيقة في الدليل والحجة. وأما الفقهاء، فإنهم كُلفوا المصير إلى أخبار الآحاد والقياس وغيره مما لا يكسب علماً، ويؤدي إلى غلبة الظن، فسموا ذلك دليلاً. وهم في إعمال النظر يحكمون بما أدى إليه غلبة الظن استنادًا إلى أمر الله للحكم به. فلذلك سموه حجةً ودليلاً للانقياد بحكم الشرع إلى موجبه. ومن جهة أخرى، فإن ما أدى إلى غلبة الظن كأخبار الآحاد والقياس يسمى دليلاً وحجةً في أعيان المسائل لأنه في الجملة معلوم. فهو في الأصل متيقن مقطوع به. وإنما يتعلق بغلبة الظن أعيان المسائل.[41]

وبهذا يتبين أن الخطيب قد سن لنا اعتبار المقام لكل مقال، وبنى فقهه للعلم على ما يشبه المنهج التداولي المنفتح بدلاً من الركود على منطق العقل المنغلق الذي يقود غالباً إلى أبستمولوجيا التنافر السجالي. ومما يستأنس به في قراءة منهج الخطيب في التعريف كلامه في توضيح المقصود بالعقل. ذكر الخطيب بأن العقل ضرب من العلوم الضرورية محله القلب. وأورد تعريفات أخرى منها أنه قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات، أو العلم الذي يمتنع به من فعل القبيح، أو ما حسن معه التكليف، أو أنه نور وبصيرة منزلته من القلوب منزلة البصر من العيون. قال: والمعنى في هذه العبارات كله متقارب."[42] ونخلص من هذا كله أن العلم عند الخطيب هو معرفة المعلوم على ما هو به ظاهراً وباطناً. وقد يأتي اسم العلم على أمور أخرى تَجوزاً أو لأنها في الجملة علم دون النظر في جزئياتها.

4. الإطار المنهجي عند الخطيب البغدادي في المسائل الشرعية

من خلال الاستقراء في كتب الخطيب البغدادي لا سيما الكتب المعنية بالأصول والقواعد العامة، نستطيع أن نحدد بعض الأبعاد التي تُكَوِّن الإطار المنهجي لأعماله. وقبل الولوج في بيان هذه الأبعاد، نذكر هنا الأزمات التي كان يعيشها الخطيب فتندرج ضمن العوامل التي تجعله مُكباً على تصنيف بعض كتبه. يمكن

القول بأن الأزمات الرئيسة ثلاثة. أولاً أزمة الاستهانة بعلوم الحديث والسنة. نتلمس وجود التنافس بين المجالات من خلال بعض عبارات الخطيب في كتبه منها رسالته في علم النجوم التي تنبئ عن اهتمام بعض سكان بغداد بهذا العلم والرغبة للشروع فيه. ثم نجد الخطيب يعبر عن أسفه لقلة المحققين في علم الحديث، إذ يلاحظ أنه من النادر أن تخلو إحدى البلدان الإسلامية من وجود فقيه متخصص يُعتمد عليه في إصدار الفتاوى والرجوع إليه في الاستشارات الدينية، بينما يبقى العديد من الأماكن فارغة تماماً من هؤلاء المتخصصين الذين يتمتعون بالاجتهاد والمعرفة العميقة في الحديث. يعزو الخطيب هذا النقص إلى تعقيدات علم الحديث وصعوبته، وندرة الأفراد القادرين على استيعابه ونقل معارفه إلى الآخرين. وفي استنتاجه، يُردد كلمات الشاعر التي تعبر عن الواقع القاسي: "وقد كنا نعدهم قليلاً، فقد صاروا أقلَّ من القليل."[43] وهذا من جانب. ومن جانب آخر، يعبر الخطيب عن استيائه من تسمية بعض الأشخاص أصحاب الحديث بلقب الحشوية. يرى الخطيب أن المتكلمين معذورين في الازدراء الذي يُظهرونه تجاه أصحاب الحديث، ويعتبرونه عيبًا لهم، بسبب التباين الواضح بينهم الذي يؤدي إلى التوتر والصراع. فإنهم يعتقدون بطلان العديد من الروايات التي ينقلها أصحاب الحديث، ومعظم ما يروونه ويتداولونه، ويُكفرون المحدثين الذين صححوها ويُسمونهم بالحشوية. ويشير إلى أن اعتقاد المحدثين في المتكلمين لا يخفى على العلماء والمتعلمين. قال الخطيب: "فهما كما قال الأول: الله يعلم إنا لا نحبكم ... ولا نلومكم إذ لا تحبونا. فقد ذكرت السبب الموجب لتنافي هذين الفريقين، وتباعد ما بين هاتين الطائفتين."[44] فالخطيب لا يرى في علم الحديث إلا الشرف. فلذلك كتب رسالة في بيان شرف أصحاب الحديث ونقل في كتاب الفقيه قول أفلاطون "محب الشرف هو الذي يتعب نفسه بالنظر في العلم،" مشيراً إلى المحدث الفقيه.[45]

والأزمة الثانية التي كان يعاني منها الخطيب هي ضعف الأهلية وفشو التعالم لدى طلبة الحديث. وهذه ظاهرة كما في مقدمة كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع. أشار الخطيب إلى أهمية اتباع الطرق الصحيحة في تعلم العلوم، وضرورة استخدام الأدوات المناسبة لتحقيق النجاح فيها. وفي هذا السياق، لاحظ الخطيب بعض الأشخاص في عصره يدعون أنفسهم متخصصين في علم الحديث، على الرغم من أنهم يفتقرون إلى المعرفة الأساسية في هذا المجال. قال: "وقد رأيت خلقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدعون." [46] فقد يعتقد بعضهم أنه بكتابة قليل من الأجزاء والاستماع للحديث لفترة قصيرة يكونون محترفين في هذا العلم، دون أن يبذلوا الجهد اللازم في دراسته بعمق أو الاهتمام بحفظه أو تصنيفه في الأبواب.[47] وأشار الخطيب في كتاب الشرف بأن الذين انحرفوا عن الصواب في طلب العلم هم الأحداث من طلبة الحديث. وذكر أيضا كراهة العلماء للانشغال الزائد في جمع الأحاديث الغريبة والأسانيد الضعيفة على حساب الحديث الصحيح والمفيد. قال: "وأكثر من يجمع ذلك الأحداث منهم، فيتحفظونها ويذاكرون بها. ولعل أحدهم لا يعرف من الصحاح حديثاً، وتراه يذكر من الطرق الغريبة والأسانيد العجيبة التي أكثرها موضوع، وجلها مصنوع، ما لا ينتفع به."[48] وأوضح أن بعض الباحثين يقضون

وقتًا طويلًا في جمع هذه الأحاديث دون الحصول على فائدة ملموسة منها، مما يؤدي إلى إهمال فهم الأحكام الشرعية والاستفادة منها. وأشار إلى أن هذا الاتجاه قد أدى إلى تضييع الوقت والجهد دون الوصول إلى نتائج مرضية، في حين يكون من الأفضل التركيز على دراسة الأحاديث الصحيحة والمفيدة والتي تحمل قيمة فعلية للمسلمين.[49] ثم قال: "وقد فعل متفقهة زماننا كفعلهم، وسلكوا في ذلك سبيلهم، ورغبوا عن سماع السنن من المحدثين، وشغلوا أنفسهم بتصانيف المتكلمين. فكلا الطائفتين ضيع ما يعنيه، وأقبل على ما لا فائدة له فيه."[50] ومع هذه الثغرات، فكثير من هؤلاء الأحداث لا يحسنون التأدب مع العلماء. قال الخطيب: "وهم مع قلة كتبهم له -أي الحديث-، وعدم معرفتهم به أعظم الناس كبراً، وأشد الخلق تيهاً وعجباً، لا يراعون لشيخ حرمة، ولا يوجبون لطالب ذمة، يخرقون بالراوين، ويعنفون على المتعلمين، خلاف ما يقتضيه العلم الذي سمعوه، وضد الواجب مما يلزمهم أن يفعلوه، وقد وصف أمثالهم بعض السلف حيث قال: ما رأيت علماً أشرف ولا أهلاً أسخف من أصحاب الحديث."[51] وهذه الأزمة جعلت الخطيب يجري قلمه في وضع كثير من الكتب في بيان الآداب والقواعد والوسائل الصحيحة لطلب العلم.

فأما الأزمة الرئيسة الثالثة، فهي تتمثل في ظهور أمارات قسوة القلب وغياب الزهد لدى المشتغلين بعلم الحديث. ويفهم هذا من كلام الخطيب: "والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدباً، وأشد الخلق تواضعاً، وأعظمهم نزاهةً وتديناً، وأقلهم طيشاً وغضباً."[52] وذلك لدوام استماعهم للأخبار التي تحتوي على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه، وسيرة السلف الصالحين من أهل بيته وأصحابه، وأساليب المحدثين، ومآثر السالفين، مما يعمل على اعتناقهم لأجملها وأروعها، وتجنب الأمور الدنيئة والأقل قيمة منها.[53] وقد نقل أيضا عن ابن شهاب أنه قال: "إن هذا العلم أدب الله الذي أدَّب به نبيه ﷺ، وأدَّب النبي ﷺ أمته، وهو أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدي إليه، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجةً فيما بينه وبين الله ﷻ."[54] واهتم الخطيب بهذا الجانب حتى نصح أهل العلم بملازمة اللطف في الكلام. قال: "وينبغي له أن يعود لسانه لين الخطاب، والملاطفة في السؤال والجواب، ويعم بذلك جميع الأمة من المسلمين وأهل الذمة." واستأنس برواية عن أبي سنان أنه قال: قلت لسعيد بن جبير: المجوسي يوليني من نفسه ويُسلّم عليَّ، أفأرد عليه؟ قال ابن جبير: سألت ابن عباس عن نحو ذلك فقال: لو قال لي فرعون خيراً لرددتُ عليه."[55] بل بلغ الحد عند الخطيب في مراعاة السمت الحسن والمحافظة على المروءة إلى أن نقل حديثاً عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر إلى رجل فأعجبه، قال: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا، قال: سقط من عيني. قيل: وكيف ذاك، يا رسول الله؟ قال: لأن المؤمن إذا لم يكن ذا حرفة تعيش بدينه.[56] فاهتمام الخطيب بالخلق الحسن وكذلك الزهد في الدنيا بارز كما حكي من عدم قبوله المال الذي أهدي له وإيضاحه معالم الزهد في كتابه الموسوم بالزهد والرقائق.

فهذه أزمات رئيسة يَظهر الاهتمام بها في كتب الخطيب من خلال سياقات كلامه وتكرار الإشارة إليها. ويمكن تلخيصها في هذه الكلمات: اختفاء ماهية علم الحديث، الخلل المنهجي عند الطلبة، والدنو الخلقي لدى المنتسبين إلى مجال الحديث. من هنا نفهم

عناية الخطيب بالتأصيل في مسائل العلوم ويحقق فيها بإيراد الأمثلة المتعددة حتى لا يكاد يوجد فرع من فروع علم الحديث إلا وقد ألف فيه. ونجد أيضا أنه حاول قدر جهده توضيح مقاصد دراسة الحديث كما أسلفنا في الكلام عن غاية العلم ومنزلته عند الخطيب.

وانطلاقاً من النظر في الكتابات المنهجية عند الخطيب، يرى الباحث باول هيك بأن كتاب الخطيب تقييد العلم أُلف بسبب الهم الأبستيمي الذي كان يشغل بال الخطيب.[57] ويحسن إذاً أن نشرع في بيان الأبعاد التي تُشيد هذه المنهجية وتُكون إطارها عند الخطيب. فأما البعد الأول فهو بعد الرواية النقلية. ونقصد به الالتزام بالإسناد وتصحيح الرواية. وقد سمى الخطيب المسائل التي يلزم فيها الإسناد بالمسائل الشرعية.[58] ونجد تفصيل هذه المسائل ومتعلقاتها في كتابه الجامع لأخلاق الراوي. فقد عقد باباً بعنوان "باب القول في كتب الحديث على وجهه وعمومه وذكر الحاجة إلى ذلك في الجمع لأصناف علومه." ثم ذكر أنواع الروايات والمجالات التي ينبغي للطالب أن يكتب أسانيدها. فذكر الأحاديث المرفوعة، والموقوفة، والمرسلات، والمقاطيع. وكذلك ذكر أحاديث التفسير وأحاديث المغازي وحروف القراءات والأحاديث المعادة والطرق المختلفة. قال بعد أن أوضح المراد في هذه الفصول: "كل ما تقدم ذكره يفتقر كتبه إلى الإسناد. فلو أسقطت أسانيده واقتصر على ألفاظه فسد أمره ولم يثبت حكمه لأن الأسانيد المتصلة شرط في صحته ولزوم العمل به."[59] ويضيف الخطيب بعد ذلك: "وأما أخبار الصالحين وحكايات الزهاد والمتعبدين ومواعظ البلغاء وحِكم الأدباء فالأسانيد زينة لها وليست شرطاً في تأديتها." فإسناد الحكمة وجودها.[60] ومع ذلك، إذا لوحظ في رواية معينة ما يفيد الحكم الشرعي فالأولى عند الخطيب كتابة إسنادها. قال: "وعلى كل حال، فإن كتب الإسناد أولى سواء كان الحديث متعلقاً بالأحكام أو بغيرها."[61] ولا أظهر من كتابه (الكفاية في أصول علم الرواية) في توضيح هذا البعد في منهج الخطيب.

وأما البعد الثاني الذي يشكل المنهج العلمي عند الخطيب فهو بعد الدراية العقلية. والمراد به العناية بمعاني النصوص وتمكين الدراية. ولا أدل على هذه العناية عند الخطيب من كتابه (الفقيه والمتفقه) والرسالة المستلة منه بعنوان (نصيحة أهل الحديث). قال الخطيب مخاطباً أصحاب الحديث في هذه الرسالة: " وليعلم أن الإكثار من كتب الحديث وروايته لا يصير بها الرجل فقيهاً، إنما يتفقه باستنباط معانيه وإنعام التفكر فيه."[62] ثم يقرر في كتاب الفقيه والمتفقه: "واعلم أن العلوم كلها أبازير الفقه." ثم بين بأن علم الفقه لا يقتصر على معرفة الأحكام الشرعية فقط، بل يتطلب من الفقيه إتقان مجموعة شاملة من المعارف. يحتاج الفقيه إلى فهم شامل لجوانب متعددة تتعلق بالدنيا والآخرة، بما في ذلك مفاهيم متنوعة مثل الجد والهزل، الخلاف والضد، وكذلك فهم النفع والضر، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعتادة بين الناس. بالإضافة إلى ذلك، فمن ضمن مهام المفتي النظر في كافة هذه الجوانب. ولكي يحقق الفقيه هذا المستوى من المعرفة، يجب عليه التفاعل مع الناس، والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة، وطرح الأسئلة عليهم، والمناقشة معهم، وزيادة القراءة والدراسة، وجمع الكتب، والتفكير العميق في محتواه.[63] فالمعنى لا يصل إليه الواحد إلا عن طريق التفقه. ولم يقتصر المراد بالمعنى على معاني

الكلمات فحسب، بل يشمل المعنى الأصولَ التي يبنى عليها القياس. قال الخطيب: "والوقوف على الحكم بالاسم أو بالاستخراج، لا ثالث لهما. فإذا بطل أن يكون في الكتاب -أي القرآن- بيان كل شيء باسمه عُلم أنه أراد بيانه ببيان معناه."[64] وهذا يذكرنا بما عرف به المذهب الشافعي من البناء على النص والاستنباط، أو كما قال جوسِف لاوري، الخبر والاستدلال.[65] وذكر أبو المظفر السمعاني بأن الشافعي قد أشار إلى أن جماع الأصول نص ومعنى.[66] ومن الجدير بالذكر أيضا ما نقل ابن فورك عن أبي الحسن الأشعري أنه لا يفرق بين العلم والمعرفة وكذلك اليقين والفهم والفطنة والدراية والعقل والفقه. كل ذلك عنده بمعنى العلم وأن البارئ تعالى إنما اختص بوصف العلم اتباعًا له في تسميته نفسه بذلك من دون هذه الأسماء.[67]

والبعد الثالث في هذا الإطار المنهجي هو بعد الرعاية القلبية. فالعلم لا يكتسب من سعي البشر فحسب، بل لا يشم العبد رائحة العلم إذا لم يكن بتوفيق من الله عز وجل. يقول الخطيب في تأكيد هذا الأمر: "إن المعرفة بالحديث ليست تلقيناً وإنما هو علمٌ يُحدثه الله في القلب. أشبه الأشياء بعلم الحديث معرفة الصرف ونقد الدنانير والدراهم، فإنه لا يعرف جودة الدينار والدراهم بلون ولا مس ولا طراوة ولا دنس ولا نقش ولا صفة تعود إلى صغر أو كبر ولا إلى ضيق أو سعة، وإنما يعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف البهرج والزائف والخالص والمغشوش. وكذلك تمييز الحديث، فإنه علم يَخلقه الله تعالى في القلوب بعد طول الممارسة له والاعتناء به."[68] فكما أن العبد يجتهد ويصبر في بذل الجهد لكسب العلم ويطلب مع ذلك التوفيق والإعانة من الله، فكذلك يجتهد العبد في بلوغ الدرجات العلى ويطلب الفضل والفضيلة في سعيه ثم يرزقه الله من فضله حيث يشاء. فمعرفة الحديث ليست مقصودة لذاته، ولكنها وسيلة لبلوغ الفضيلة في الآخرة. نقل الخطيب عن حماد بن سلمة أنه قال: من طلب الحديث لغير الله، مكر به. وقيل لسفيان الثوري: من الناس؟ قال: العلماء، قيل: فمن السفلة؟ قال: الظلمة، قيل: فمن الغوغاء؟ قال: الذين يكتبون الحديث، يأكلون به الناس. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد."[69] وهذا قد يفيدنا في تفسير بعض الروايات التي تعتبر ضعيفة في مقاييس نقد السند عند المتأخرين ومع ذلك وجدنا أمثال الخطيب يستأنسون بها ويعملون بها. فهم يتقربون إلى الله بالعلم والعمل معاً، ويرون أن الإنسان لا يكون كاملاً في الأمرين معاً. فقليل من العلم مع بعض التسامح يُجمع مع قليل من العمل. ثم نجد الخطيب يمدح علماء الحديث ويقول فيهم: "وأما المحققون فيه المتخصصون به فهم الأئمة العلماء، والسادة الفهماء، أهل الفضل والفضيلة والمرتبة الرفيعة."[70] وهكذا رسم العلم طريقةً للوصول إلى رضا الله وأن الفتح في العلم يكون بحسب قرب العبد من الله. فالإنسان لا يهتدي إلى الصواب في عملية النقد والتحقيق إلا بنور من عند الله وتفضله على عبده.

وتتجمع هذه الأبعاد في حديث نضر الله امرءًا سمع مقالتي الذي قد خص له الخطيب رسالة مستقلة. فالحديث ضَمِنَ لحامل العلم الناقلِ له دون الفقه نضرةً من عند الله. قال الخطيب: "فأخبر ﷺ أنه قد يحمل الحديث من يكون له حافظاً، ولا يكون فيه فقيهاً ... فإن لهم حرمةً ترعى، وحقاً يجب أن يؤدى."[71] فالحديث فيه إشارة إلى بُعد الرواية وبُعد الدراية معاً. وفي إحدى روايات الحديث زيادة في آخره: ((ومن

كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)). فهذه إشارة إلى بعد الرعاية القلبية.

5. ملامح فقه العلم الإسلامي في جوانب أخرى

المباحث السابقة قد أتحفتنا ببعض أعمال الخطيب التي تنبئ عن فهمه المؤصل لمفاهيم ومناهج وموضوعات علم الحديث والسنة. ولضيق المجال، لا يمكننا الحديث عن كل النماذج والتطبيقات التي تفسح عن الرؤية الأبستمولوجية التي كان يتمتع بها هذا المحدث وإن كان التأسيس والتنظير لأصول وقواعد الدراسة الأبستمولوجية لم تكن تولد في ذلك العهد. فلا شك أن الاعتناء بمسائل أصول الفقه والتعرض لبعض المناقشات الكلامية ومجالسة أهل المجالين له أثر كبير في بناء الفكر الأصولي الإسلامي الذي يمثل نظرية المعرفة الإسلامية. فعلى سبيل المثال، ابتداء الخطيب كتابه في علم الرواية بمباحث الخبر العامة يدل على اهتمامه بتهيئة القارئ بالتصور العام لمسائل النقل المعرفي قبل الدخول في تفاصيل علوم الحديث. وقد انتبه إلى ذلك ابن الصلاح حيث أشار إلى أن الخطيب قد استفاد مصطلح المتواتر من المتكلمين والأصوليين. ولكنه وَهِم في تحديد مقصد الخطيب فظن أنه يشرع في الكلام عن الحديث المتواتر. والخطيب لم يأت بمصطلح الحديث المتواتر كما أسلفنا. وإنما مهد لكل مبحث بأصوله وسياقاته العامة قبل الشروع في التفاصيل والإتيان بالأمثلة التطبيقية له.

وإذا أردنا أن نكشف عن جوانب أخرى من فقه العلم التي تتأسس عليها كتابات الخطيب وممارساته، نحتاج إلى النظر في معنى فقه العلوم الإسلامية عند فقهاء العلوم المعاصرين. فقد ذكروا بأن فقه العلوم الإسلامية يعني ذلك العمل الأبستمولوجي المنصب على المعرفة العلمية المنتجة في العصور الإسلامية عبر ثلاث طبقات: 1- وصف بناء العلم من جهة مفاهيمه وموضوعاته ومناهجه ونظرياته، 2- دراسة التطور التاريخي للعلم واجتماعيات المعرفة الإسلامية في الإسلام؛ أي مراكزها ومؤسساتها ومراحلها وأحقابها وطبيعة المجتمع الذي تداولها، و3- نقد المعرفة العلمية في الإسلام بإبراز أخطائها وأزماتها وعوائقها نقداً أبستيمياً من قبل فرق العلماء المتخصصين أنفسهم، لا من قبل المهتمين بتاريخ الفلسفة العام. وهذه الطبقات الثلاثة نجد ملامحها في كتب الخطيب. فقد بيّن لنا أزمات مجال الحديث وألّف في تصحيح المفاهيم المتعلقة به وفصّل في تاريخ أصحاب الحديث في كتابه تاريخ مدينة السلام حتى يقال إنه تاريخ الحديث بدلاً من تاريخ بغداد. واشتغل الخطيب أيضا ببيان أوهام كبار أصحاب الحديث أمثال البخاري ومسلم وابن معين وأحمد بن حنبل وغيرهم في كتابه (الموضح لأوهام الجمع والتفريق). وكذلك انتقد شيخه أبا نعيم الأصبهاني في مسألة الإجازة وغيرها.[72] والتزم ببيان كل ما ورد له في إيراد تراجم الرجال. قال الخطيب: "وإذا اجتمع في أخبار رجل واحد معانٍ مختلفة من المحاسن والمناقب والمطاعن والمثالب وجب كتب الجميع ونقله وذكر الكل ونشره."[73] وقد أدى ذلك إلى الهجوم عليه وخاصة من قبل الحنابلة والأحناف لكونه نقل أموراً لا تعجبهم في ترجمة أحمد بن حنبل وأبي حنيفة. وملأ كتابه الكفاية بمذاهب المحدثين ومناهجهم في مسائل مختلفة. والخطيب مع كل هذا على علم بمنزلة الأخبار ومستوياتها. فلسنا بعيدين إذا قلنا بأنه يمثل نموذجاً

مناسباً للعناية بفقه العلم في أوساط المحدثين ويعبر عن وجود هذا الاهتمام في تراث الحديث النبوي.

الخاتمة

يتضح من النقاش السابق أن الحافظ الخطيب البغدادي لم يقتصر على مجرد نقل الروايات وجمع الطرق في علم الحديث، بل أظهر اهتمامًا بعناصر مباحث الأصولية المعرفية في كتاباته ونقده. وتترك المؤلفات التي كتبها أثرًا واضحًا للظروف الاجتماعية والمعرفية التي عاشها، مما ينعكس في أساليبه ومضامينه. تُعتبر مؤلفات الخطيب مصدرًا غنيًا للفهم الأبستمولوجي في زمانه، إذ كان من بين أكثر الحفاظ تأليفًا في ذلك الوقت، كما أشار الذهبي في تذكرة الحفاظ. يمكن تلخيص التحديات التي واجهها الخطيب في مجال الحديث في ثلاث نقاط: اختفاء ماهية علم الحديث، الخلل المنهجي عند الطلبة، والدنو الخلقي لدى المنتسبين إلى مجال الحديث. وهذه تشجعه في وضع مصنفات عديدة تتسم بالشمولية في التناول والوسطية في المنهج. وبالتالي، يحتاج كل من الحفظ والعمل والتقييد مثلاً، في معالجة الخطيب له إلى دراسة مستقلة تبين مدى العناية بمصادر المعرفة ووسائلها في أوساط أصحاب الحديث باعتبارهم مجتمع علمي متميز. ويقترح الباحث أيضاً إجراء دراسات متخصصة في العلاقات بين علوم الحديث وعلوم الأصول للكشف عن هموم أبستمولوجية عند علماء الشريعة المتقدمين. فالأمل في النهاية إبراز مكانة الحديث والسنة ودوره في منهج معرفة الله وهي أسمى أهداف المعرفة في الأبستمولوجية الإسلامية.

المصادر والمراجع

1. ابن الأثير، علي بن مُحَمَّد، عز الدين، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987.
2. ابن الأكفاني، هبة الله، ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، الرياض: دار العاصمة، 1989.
3. ابن الجوزي، غاية النهاية في طبقات القراء، بيروت: دار الكتب العلمية، 2006.
4. ابن بلبان، علاء الدين، علي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1988.
5. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن مُحَمَّد بن علي، نزهة الألباب في الألقاب، الرياض: مكتبة الرشد، 1989.
6. ابن فورك، مُحَمَّد بن الحسن، مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، بيروت: دار المشرق، 1987.
7. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، طبقات الفقهاء الشافعيين، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، 1993.
8. ابن ماكولا، علي بن هبة الله، الأمير، تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام، بيروت: دار الكتب العلمية، 1990.
9. ابن نقطة الحنبلي، تكملة الإكمال، السعودية: جامعة أم القرى، 1987.
10. ابن نقطة الحنبلي، مُحَمَّد بن عبد الغني، التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد، الهند: دائرة المعارف، 1983.
11. الباقلاني، التقريب والإرشاد، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1998.
12. الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، بيروت: المكتب الإسلامي، 1984.

13. الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الرياض: مكتبة المعارف، 1983.

14. الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، الرياض: دار ابن الجوزي، 1996.

15. الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، الرياض: درا ابن الجوزي، 2011/1432.

16. الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وورادیها، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2001.

17. الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، أنقرة: دار إحياء السنة، د.ت.

18. الخطيب البغدادي، نصيحة أهل الحديث، الأردن: مكتبة المنار، 1988.

19. الذهبي، دول الإسلام، بيروت: دار صادر، 1999.

20. الذهبي، مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان، أبو عبد الله، تاريخ الإسلام ووفيات الأعلام، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2003.

21. الزركلي، خير الدين بن محمود، الأعلام، دار العلم للملايين، 2002.

22. السبكي، عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، بيروت: دار إحياء الكتاب العربي، د.ت.

23. السخاوي، مُحَمَّد بن عبد الرحمن، شمس الدين، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

24. السمعاني، منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار، أبو المظفر، قواطع الأدلة في الأصول، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

25. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، طبقات الحفاظ، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983.

26. الطحان، محمود، الحافظ الخطيب البغدادي وأثره في علوم الحديث، رسالة الدكتوراة، 1981/1401.

27. العجمي، مُحَمَّد بن ناصر، الكتب والأجزاء المقروءة في جوامع ودور الحديث بدمشق، بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2011.

28. العش، يوسف، الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها، دمشق: المكتبة العربية، 1945/1364.

29. القيسراني، مُحَمَّد بن طاهر المقدسي، المنثورات من الحكايات والسؤالات، الرياض: دار المنهاج، 2009/1430.

30. الكتاني، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، الرياض: دار العاصمة، 1988/1409.

31. الكتاني، عمر بن إبراهيم، جزء من حديث أبي حفص الكتاني، مخطوطة دار الكتب الظاهرية (مجموع 21/40).

32. المالكي، مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد، تسمية ما ورد به الخطيب دمشق من الكتب من رواياته، انظر: الطحان، الحافظ الخطيب البغدادي، والعجمي، الكتب والأجزاء.

مراجع أجنبية

33. Brown, Jonathan, The Canonization of al-Bukhārī and Muslim (Leiden: Brill, 2007).

34. Brockelmann, Carl,

• Geschichte der Arabischen Litteratur (Leiden: Brill, 1943).

• Geschichte der Arabischen Litteratur (Leiden: Brill, 1937, Supplementband).

35. Ephrat, Daphna,

• A Learned Society in Period of Transition, The Sunnī ʿUlamāʾ of Eleventh-Century Baghdād (New York, SUNY Press, 2000).

• "al-Khaṭīb al-Baghdādī," in Medieval Islamic Civilization, An Encyclopaedia, ed. Josef W. Meri (Routledge, 2006), 437.

36. Heck, Paul, "The Epistemological Problem of Writing in Islamic Civilization: al-Ḫatīb al-Baġdādī's Taqyīd al-ʿilm" in Studia Islamica 94 (2002): 85-114.

37. Lowry, Joseph, Early Islamic Legal Theory: The Risāla of Muḥammad Ibn Idrīs al-Shāfiʿī (Leiden: Brill, 2007).

38. Malik, Habeeb Aḥmad, The Educational Theory of al-Khaṭīb al-Baghdādī (University of Pennsylvania, 1993).

39. Malti-Douglas, Fedwa, "Controversy and Its Effects in the Biographical Tradition of Al-Khaṭīb Al-Baghdādī," Studia Islamica 46 (1977): 115-131.

الهوامش:

[1] ابن حجر العسقلاني، نزهة الألباب في الألقاب، ج1ص243-244.

[2] الكتاني، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، ص206.

[3] ابن ماكولا، تهذيب مستمر الأوهام، ج1ص57-60.

[4] لعله في كتابه تاريخ وفيات الشيوخ، انظر: ابن نقطة الحنبلي، التقييد، ج1ص282 وتكملة الإكمال ج4ص334.

[5] في تاريخ صور كما أورده الذهبي في تاريخ الإسلام، ج10ص175-188.

[6] الهمذاني، طبقات الفقهاء، كما ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام والسيوطي في طبقات الحفاظ، ص433-435.

[7] ابن الأكفاني، ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، ص 32.

[8] استفدنا منه في دراستنا لحياة الخطيب البغدادي العلمية، وهي دراسة لم تطبع. انظر مقدمة التحقيق لبشار عواد في: الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج1ص17-72.

[9] انظر: الكتاني، عمر بن إبراهيم، جزء من حديث أبي حفص الكتاني، مخطوطة دار الكتب الظاهرية (مجموع 21/40)، 1. ترجمة الكتاني في: ابن الجوزي، غاية النهاية في طبقات القراء، ج1ص518-519.

[10] ابن الأثير، الكامل، ج8ص390.

[11] الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج16ص117.

[12] المصدر نفسه، ج6ص90.

[13] الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج5ص527-528، ج8ص10-11، ج8ص452، ج2ص128،

[14] السخاوي، الإعلان، ص666.

[15] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج4ص30. وانظر: ابن كثير، طبقات، ص375.

[16] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج9ص468.

[17] Brown, The Canonization, p.218

[18] Brockelmann, Geschichte, vol.1, p.401

[19] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج9ص629-630.

[20] الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج6ص24، الزركلي، الأعلام، ج1ص211.

[21] ابن الأكفاني، ذيل، ص33، الذهبي، دول الإسلام، ج1ص398، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج10ص784. وانظر أيضا: Ephrat, Learned Society, p.169.

[22]المالكي، تسمية ما ورد به الخطيب دمشق. انظر: الطحان، الحافظ الخطيب البغدادي، ص281-301، والعجمي، الكتب والأجزاء.

[23]الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، ص31.

[24] المصدر نفسه، ص 14-15.

[25] الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج2ص8-9.

[26]المصدر نفسه، ج1ص396.

[27]المصدر نفسه، ج1ص135.

[28]الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم العمل، ص67-68.

[29]المصدر نفسه، ص15-16.

[30] Malik, The Educational Theory of al-Khaṭīb al-Baghdādī, pp.44-48.

[31]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج1ص123.

[32]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج2ص258.

[33]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج2ص258.

[34]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج2ص258.

[35]انظر: الباقلاني، التقريب والإرشاد، ج3ص53 -54.

[36]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج1ص276.

[37] ابن بلبان، الإحسان، ج1ص156.

[38]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج1ص108.

[39]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج1ص108.

[40]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج1ص108.

[41]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج2ص45.

[42]المصدر نفسه، ج2ص36.

[43]لخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1ص112.

[44]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج2ص151-152.

[45]المصدر نفسه، ج2ص206.

[46]الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1ص75.

[47]الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1ص75.

[48]الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، ص129.

[49]الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، ص129.

[50]الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، ص129.

[51]الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1ص77.

[52]المصدر نفسه، ج1ص78.

[53]المصدر نفسه، ج1ص78.

[54]المصدر نفسه، ج1ص78.

[55]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج2ص230.

[56]لخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج1ص98.

[57] Heck, Paul, "The Epistemological Problem of Writing in Islamic Civilization: al-Ḫatīb al-Baġdādī's Taqyīd al-ʿilm" in Studia Islamica 94 (2002): 85-114.

[58]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج1ص424

[59]الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج2ص213

[60]المصدر نفسه، ج2ص213

[61]المصدر نفسه، ج2ص214.

[62]الخطيب البغدادي، نصيحة أهل الحديث، ص37.

[63]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج2ص333.

[64] المصدر نفسه، ج1ص468.

[65] Lowry, Early Islamic Legal Theory, p.67

[66]السمعاني، قواطع الأدلة، ج1ص22.

[67]ابن فورك، مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، ص6.

[68]الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج2ص255.

[69]المصدر نفسه، ج1ص84-85

[70]الخطيب البغدادي، الكفاية في أصول علم الرواية، ج1ص85

[71]الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج2ص140.

[72]انظر: القيسراني، المنثورات، ص22-24.

[73]الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج2ص202.